الباب الأول

obeikan.com

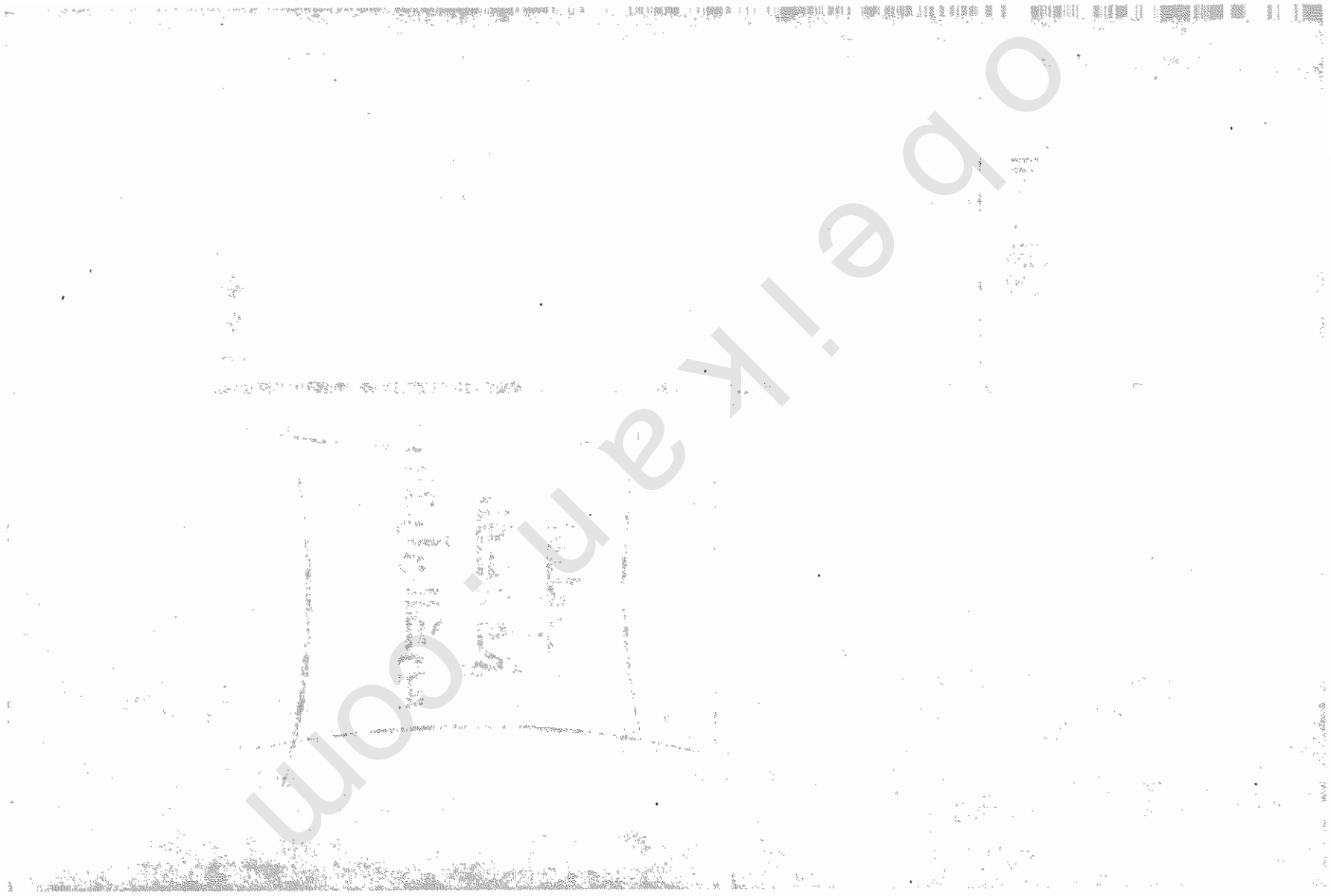

الفصل الأول

الفن القصصي وأغراضه

١ـ مفهوم القصة

أولاً: المفهوم اللغوي.

١ ـ القص: تتبع الأثر. يقال : قصصتُ أثره : أي تتبعته ، والقصص مصدر ، قال تعالى :﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف].

أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[القصص١١].

أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه.

والقصص كذلك: الأخبار المتتبعة.

قال تعالى:﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران٦٢].

وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف١١١].

والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال ، وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعية ، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار. وتتبع آثار كل قوم ، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه .

قال الشيخ محمد بن عثيمين: «القصص والقص لغة : تتبع الأثر». وقصص القرآن أصدق القصص لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ وذلك لتمام

مطابقتها للواقع.

وأحسن القصص لقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾.

وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى

وأنفع القصص لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق[1].

٢ ـ القصة كما عرّفها الأدباء: «حكاية تروي نثرا وجها من وجوه النشاط والحركة في حياة الإنسان».

ثانياً: مفهوم القصة اصطلاحاً.

أما عن تعريف القصة اصطلاحاً فقد عرفت بعدة تعريفات نذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ «مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة، أو عدة حوادث، تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة، على غرار ما تباين حياة الناس على وجه الأرض، ويكون نصيبها في القصة متفاوتاً من حيث التأثر والتأثير»[2].

٢ ـ «حكاية تعرض ـ بأسلوب فني منتظم ـ أحداثاً من الحياة الواقعية أو المتخيلة»[3].

---

(١) انظر أصول في التفسير للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٥٢-٥٣).

(٢) انظر: فن القصة،د/ محمد يوسف نجم ص٩ دار الثقافة بيروت.

(٣) انظر: مجلة البلاغة والنقد ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص ١٧٥/١٧٦ ط٢ ١٤١٢هـ.

٣ ـ « وسيلة للتعبير عن الحياة أو قطاع منها، تتناول حادثة واحدة أو عدداً من الحوادث بينها ترابط سردي، ويجب أن يكون لها بداية ونهاية».

الخلاصة:

القصة: « تعبير شفهي ، أو كتابي ، أو تمثيلي يتضمن أشخاصاً وأشياءَ أو حوادث تجري في حدود الزمان، وخلال أبعاد المكان من عوامل البيئة بأنواعها، والإعلام عن الوقائع والأحداث بطريقة فيها إحاطة بالأحداث والوقائع إحاطة تامة».

◆◆◆

obeikan.com

٢ـ دور القصة في الأدب العربي

أنكر بعض المستشرقين على العرب قدرتهم على إنشاء القصة،وتزعّم ذلك «أرنست رينان»[١](Ernest.Renan) المستشرق الفرنسي، و«دي بور»[٢] (de Boer).

وقد سلك كثير من الدارسين والباحثين العرب هذا الطريق مثل «أحمد أمين»[٣]، «وتوفيق الحكيم»[٤]،«والعقاد»[٥].

ولقد اشتهر العرب بأنهم أصحاب بيان، ولذلك جاء القرآن الكريم معجزة الإسلام البيانية فيهم لما عُرف عنهم من الافتنان في أساليب القول ووجوه الفصاحة، الأمر الذي ساعد على أن يكون لهم حظ من القصص والحكايات[٦] وتاريخهم الأدبي لا يخلو من ألوان القصص العديدة[٧].

والواقع أن القصة العربية قديمة قدم العرب أنفسهم، أصيلة أصالة النثر العربي الذي ذهب منه شيء كثير، وبقيت منه آثار تدور حول أمثال العرب وأيامهم و مآثرهم. ولاشك أن عنصر القصة في الأدب العربي القديم، قديم أصيل يكفي للتدليل عليه بواحدة من مظاهر عدة كنها تؤكده في منطق قوي ثابت، وأعني بذلك

(١) أرنست رينان:تاريخ اللغة السامية،ص٥٤٠.

(٢) ديبور: تاريخ الفلسفة في الإسلام،ص٢٦.

(٣) أحمد أمين:فجر الاسلام،ص٤٦:٤٢.

(٤) انظر: تحت شمس الفكر،ص٦٣.

(٥) الفصول وما نقله عنه«رادمير» في دراسته عن محمود تيمورص١٥.

(٦) د.محمد حسن النبوي:القصص الحديث النبوي،ص٥٢.

(٧) المرجع السابق ، ص٥١.

اللغة والقرآن الكريم وواقع الحياة.

ولنعطي نبذة تاريخية عن المستشرق«أرنست رينان» الذي لم ينصف القصة في الأدب العربي لنبصر القارىء بصورة عامة حول هذه الافتراءات.

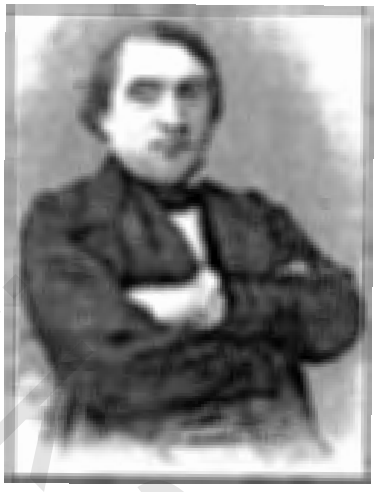

المفردات	البيانات الشخصية
الاسم	جوزيف أرنست رينان
تاريخ الميلاد	٢٨ فبراير١٨٢٣م.
مكان الميلاد	منطقة بريتاني الواقعة غربي فرنسا
تاريخ الوفاة	١٢أكتوبر١٨٩٢م
مكان الوفاة	باريس
الجنسية	فرنسي
المهنة	مؤرخ، كاتب مسرحي، فيلسوف،عالم آثار
الحالة الاجتماعية	متزوج في عام١٨٥٦

المفردات	البيانات الشخصية
آراءه السلبية	«إذا ما فشل المسلمون في التحديث، فإن سجلهم العنيد في التخلف والجهل والفقر والتشدد والطغيان.. سوف يتواصل ويزداد كما تقول جريدة النيشن ريفيو فالسجل العنيد في التخلف، لشعوب دون أخرى، إنما يشي بحكم لا راد له، من حيث هو معطى طبيعي، مقذوف بجوهر مجبول على الفطرة لسلالات انحطاطية، لا دور لها في البناء العالمي، إلا العنف والتخريب وسفك الدماء.. إنها الفارق بين الفوقية والدونية كما رسمت لها التوراة بين شعب مختار وشعوب محكومة باللعنة السماوية وسوء المصير دون ذنب منها!
آراءه الإيجابية	«لم يعتر القرآن أي تبديل أو تحريف، وعندما تستمع إلى آياته تأخذك رجفة الإعجاب والحب، وبعد أن تتوغل في دراسة روح التشريع فيه لا يسعك إلا أن تعظم هذا الكتاب العلوي وتقدسه»

◆◆◆

٣ ـ آراء المؤرخين المنصفين للقصة في الأدب العربي

يقول «كارل بروكلمان» (*Carl* Brockelmann) في حديثه عن أولوية النثر: « لم يكن الشاعر وحده هو الذي تهفو إليه الأعين عند عرب الجاهلية، بل كان القاص يقوم أيضاً مقاماً هاماً إلى جانب الشاعر في سمر الليل بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة وفي مجالس أهل القرى والحضر»(١).

ويقول«بارون كاردي فو» (B.Carrade Vaux):«إنه لم يسبق الأدب العربي أي أدب آخر في نوع الأقاصيص»(٢).

ويقول «جوستاف لوبون»: «(Gustave Le Bon) أتيح لي في إحدى الليالي أن أشاهد جمعاً عربياً من الحمالين والأجراء يستمعون إلى إحدى القصص، وإني أشك في أن يصيب قاص مثل ذلك النجاح لو أنشد جماعة من فلاحي فرنسا شيئاً من أدب«لامارتين» أو«ساتوبريان»... فالجمهور العربي ذو حيوية وتصور يتمثل ما يسمعه كأنما هو يراه»(٣).

ولنعطي نبذة عن البيانات الشخصية لكل منهم:

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي ج١ ص١٢٨ دار المعارف ص٣ ط١٩٦٢م.

(٢) انظر: القصص في الأدب العربي ـ محمود تيمور ص٢٤.

(٣) انظر: الأدب القصصي عند العرب ـ موسى خليل سليمان ص١٥.

كارل بروكلمان

المفردات	البيانات الشخصية
الاسم	كارل بروكلمان
تاريخ الميلاد	١٨٦٨م.
مكان الميلاد	مدينة رستوك ـ ألمانيا
تاريخ الوفاة	١٩٥٦م.
مكان الوفاة	مدينة هاله ـ ألمانيا.
الجنسية	ألماني.
المهنة	مؤرخ .

جوستان لي بون

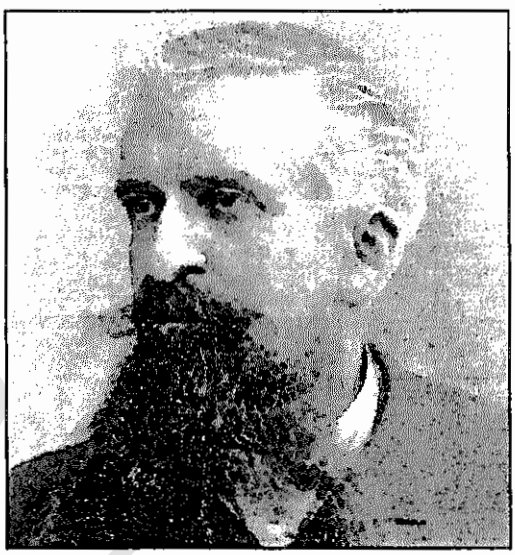

المفردات	البيانات الشخصية
الاسم	جوستاف لي بون
تاريخ الميلاد	٧مايو ١٨٤١م.
مكان الميلاد	نوجنت ـ لي ـ روتريو ـ فرنسا. Nogent – Le - Rotrou
تاريخ الوفاة	١٣ ديسمبر ١٩٣١م.
مكان الوفاة	مارنيز لا كوكيوت ـ فرنسا.
الجنسية	فرنسي.
المهنة	مؤرخ ـ عالم نفس

كارادي فو

المفردات	البيانات الشخصية
الاسم	كارادي فو
تاريخ الميلاد	٣فبراير١٨٦٧م.
مكان الميلاد	مدينة بار ـ على نهر الأرب Bar- sur- aube
تاريخ الوفاة	١٩٣٠م.
مكان الوفاة	باريس.
الجنسية	فرنسي.
المهنة	مؤرخ .

ويقول الهمداني:« لم تصل أخبار العرب والعجم من أحد إلا من العرب، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب وكانوا يدخلون البلاد للتجارة،فيعرضون أخبار الناس،وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم عَلِم أخبارهم وأيام حمير وسيرها في البلاد، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبني إسرائيل واليونان،ومن سكن بالبحرين فعنه أتت أخبار السند وفارس،ومن سكن باليمن علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان في ظل الملوك السيارة»[1].

وقد كانت هناك أمور كثيرة تدفع إلى الاهتمام بالقصة في المجتمع العربي وتشجع على ازدهارها فوق ما تحققه للناس من المتعة والتسلية، وذلك أنها تشتمل على مظاهر من تمجيد القبيلة والإشارة بماضيها وذكر أسلافها،والتعريف بمآثرها

(١) انظر: كليلة ودمنة في الأدب العربي، د/ ليلى حسن سعد الدين ص١٣٤ ـ مكتبة الرسالة ـ عمان.

ومفاخرهم،فكان ترديد قصص أيامهم وأخبار وقائعهم وانتصاراتهم أمراً محبباً إلى نفوسهم إلى حد كبير، كما كانت مصدراً من مصادر المعرفة والخبرة سواء كانت عن مجتمعهم وبيئتهم في ماضيها،أو من يجاورهم من شعوب أخرى وما لها من تاريخ وأعراف وعادات....

والقصة في المجتمع العربي كانت تؤدي وظيفة تربوية وأخلاقية لما تحمله من قيم فاضلة وألوان من الحكمة، وبخاصة تلك القصص الرمزية التي تساق على ألسنة الطير والحيوان والتي كانت في مغزاها دروسا توجيهية غير مباشرة.

وهكذا فإن الواقع المحسوس للقصة العربية من أكبر الأدلة وأقواها على أهمية العنصر القصصي في حياة العرب الأدبية،فإنهم يعرفون هذا اللون من التعبير ويمارسونه بالفعل،وهو لون امتد معهم طوال تقلبات الأحداث التاريخية،وظل تياراً متدفقاً يزيد مع الأيام ويتنوع إلى يومنا هذا.

يقول ابن الجوزي: « لصنعة الكلام سحر في النفوس إذا أصاب في القلوب موضع الإحساس،فيسلب سمع السامع وعقله وبالتالي إعجابه».

◆◆◆

٤ـ القصة في الاسلام

يرى بعض العلماء أن القصص لم يكن موجوداً في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ولا حياة أبي بكر و عمر ـ رضي الله عنهما ـ وذلك بسبب اجتماع كلمة المسلمين،وقرب عهدهم بالنبوة.

وإنما أحدثت في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حين كانت الفتنة بين الصحابة،وكان قاصراً على الموعظة الحسنة والتذكير ونحوه.

قال السيوطي:« لم يقص في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ولا زمان أبي بكر ولا زمان عمر، وإنما كان القصص محدث أحدثه معاوية حين كانت الفتنة».

وأخرج ابن أبي شيبة والمروزي عن عمر قال:« لم يقص على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا عهد أبي بكر،ولا عهد عمر،ولا عهد عثمان،إنما كان القصص حين كانت الفتنة».

وفي التخريج الكبير للعراقي من رواية الزهري عن السائب فيما أخرجه أحمد والطبراني إلى قوله:« ولا زمن أبي بكر،ثم قال:وأول من قص تميم الداري،إستأذن عمر بن الخطاب أن يقص قائماً فأذن له»

الخلاصة:

رغم اختلاف الرواية في زمن حدوث القصص إلا أنّ ذلك لا ينفي حدوثه بل يثبته،ويمكن إزالة الخلاف بأن نقول:لعله كان قليلاً في زمن عمر وعثمان ثم كثر بعد مقتليهما ـ رضي الله عنهم أجمعين .

أول من قص من الصحابة: الأسود بن سريع.

أول من قص من التابعين:عبيد بن عمير الليثي(بمكة).

أول من قص في مسجد المدينة: مسلم بن جندب.

أول من قص في مسجد البصرة:جعفر بن الحسن البصري.

من مشاهير القصاصين في القرن الأول الهجري:

١ ـ عبد الله بن سلام.

٢ ـ كعب الأحبار.

٣ ـ وهب بن منبه.

٤ ـ طاووس بن كيسان.

من مشاهير القصاصين في القرن الثاني الهجري:

١ ـ موسى بن يسار.

٢ ـ أبو علي الأسواري، وهو عمرو بن فائد.

٣ ـ القاسم بن يحي، وهو أبو العباس الضرير.

٤ ـ مالك بن عبد الحميد المكفوف.

٥ ـ صالح المري،وكنيته«أبا بشر»

هؤلاء قصاص من ذوي الشهرة الذين ذكرهم الجاحظ، وهناك غيرهم كثيرون. والقصاص لم يكونوا حجة، ولا موضع ثقة تامة في كل ما يذكرون، فقد يزيدون في الأخبار. وقد يذكرون أحاديث ضعيفة، وقد يضعون أحاديث، وقصص الأنبياء التي يذكرونها مستقاة من مصادر يهودية أو نصرانية. وقد كان «وهب بن منبه» «وكعب الأحبار» من مصادر هذه الأخبار، وظهر هذا النوع منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه:«إذا حدثكم أهل

الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

وكان ذووا العلم لا يميلون إلى سماع أكثرهم، وكان «سفيان بن حبيب»، قد فر من البصرة فتوارى عند «مرحوم بن عبد العزيز العطار»،فقال له:«هل لك أن تأتي قاصاً عندنا هنا فتتفرج[1] بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منهم ؟ فأتاه على تَكَّره،كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه»[2].

◆◆◆

(١) تبعد عنك السأم وتفرجه.

(٢) انظر:البيان والتبيين للجاحظج١ص٣٦٩.

obeikan.com

٥ـ عناصر القصة البشرية وعناصر القصة القرآنية

عناصر القصة عند الأدباء تختلف عن عناصر القصة القرآنية من حيث المضمون، من أجل ذلك رأيت أن أعرض عناصر القصة في العمل الأدبي، وعناصر القصة القرآنية، حيث أنّ كثيراً من الباحثين لايلقون الضوء على هذه النقطة.

أولاً :عناصر القصة عند الأدباء.

للقصة عناصر لابد من توافرها[1]:

أ ـ الأحداث: وهي وقائع تعرضها القصة، وقد تكون مقتبسة من حياة المؤلف، أو مما شاهده أو سمعه. وتكون في القصص الطويلة سلسلة من الوقائع وبينها تكون في القصة القصيرة حادثة واحدة.

ب ـ الشخصيات:

وهم الذين يديرون الأحداث ويتأثرون بها، وتعرض القصص نماذج متنوعة من الشخصيات الإنسانية، وبقدر ما تكون الشخصيات نابضة بالحياة، ممثلة لأنماط مختلفة من السلوك والطبائع البشرية يكون نجاح القصة وتأثيرها في الملتقى.

ج ـ البيئة:

وهى المكان والزمان اللّذان تجري فيهما الأحداث، وإن كان القاص يصور حدثاً في العصر الحديث فعليه أن يصور زمانه ومكانه بدقة لتكون معبرة ومؤثرة.

د ـ الحبكة:

وهى الأسلوب الفني الذي تبني فيه القصة، والطريقة التي تتحرك بها

(١) انظر: القرآن والقصة الحديثة ـ محمد كامل حسن المحامي ص٩ دار البحوث العلمية بالكويت.

الأحداث والشخصيات، وقد يجعل المؤلف الأحداث متوالية ومتشابكة،أو تتوالى متوازية، ومن المهم أن تكون الأحداث مشوقة، يرتبط أولها بتاليها ، فالتشويق يعتبر من أهم شروط القصة الناجحة بل يكاد يكون هو العنصر المميز لها سواء كانت قصيرة أو طويلة ، ولابد أن يسير في طريقة تصاعدية.

هـ ـ الفكرة:

وهى القضية التي تحملها القصة، وتكون مبثوثة خلال الأحداث والشخصيات، فلا نجدها في عبارة واحدة، أو فصل معين، بل نعيها بعد عرض القصة وسماعنا لها أو قراءتها كلها.

وكما أن لكل قاص بناءه القصصي وشخصيته المميزة، كذلك لكل قصاص وسائله التعبيرية رغم أنه يستخدم نفس الألفاظ التي قد يستخدمها غيره من القصاصين ولكنه يصوغها صياغة جديدة فيها شخصيته وروح عصره.

ثانياً: عناصر القصة القرآنية.

كما علمنا من قبل أنّ القصة القرآنية: مجموعة من الأحداث متتالية الوقوع تأخذ في تسلسلها المتتابع معنى القص، وبما أنها كذلك فإن عناصرها هي نفس عناصر

كل فعل، أي المكان والزمان ونسبة الحدث إلى فاعل أو محدث، ثم أخيراً الحدث بوصفه الغاية من القص، وكل هذه العناصر متغلغلة في نسيج القصة، وجزء أصيل ومتأصل فيها، ولا تنفك عنها وعن مفهومها، ولا تصور لأحداث القصة بدونها.

غير أن النقطة المحورية في القصة القرآنية ومرتكزها الأساسي هو الحدث وحده، مجرد عن المكان والزمان وعن نسبته إلى فاعله ومحدثه، وهو أمرٌ فرضته طبيعة القصة القرآنية، وحتمته وظيفتها الفريدة في سياق المنهج القرآني العام. وضمن العقيدة في مفهومها المعرفي.

أما العناصر الأخرى فتغدو بعد تجردها التام معاني هي بالفعل جزء مفهوم من الحدث، وملحوظة فيه على وجه التفصيل، ولا يراد بها إلا خدمة الحدث وإظهاره للوجود، ولكنها ليست مرادة لذاتها بأي وجه من الوجوه.

ولكي تكتمل الصورة لدينا نوضح عناصر القصة القرآنية كالتالي:

أ ـ المكان:

فالمكان مثلاً كما يجيء ضمن الأحداث: هو الموضوع الحاوي لكل حدث ومستقره، فهو له أشبه شيء بالوعاء، ومن البديهي أن لا يتصور حدث إنساني بلا موضع ومستقر، إن لم يكن فعلياً فعلى الأقل ذهنياً، لأن المكان يقف وراء كل حدث، وخلف كل واقعة، وإن لم يذكر أو يتصور إذ لا يعقل حدث إلا وهو جار في بعد يحويه ، وموضع يشغله، ومن هنا جاءت أهمية المكان للحدث كعنصر لابد منه، بيْد أن المكان لا يؤثر في الحدث تأثير الإيجاد، إذ هو كما رأينا منفصل عن الحدث ، وجريان الأحداث في تدفقها الزماني يسقط المكان.

ولم يرد في القرآن ذكر لمكان ما يرفعه فوق مستوى الحدث ، ولم يلتفت إليه التفاتاً يبعده عن دائرة العمومية والإطلاق ، ويقربه إلى خصوصية التعيين، وإذا ذكر بالتعيين فإنما يذكر لدواعي المعرفة، ولضرورة فرضتها أحداث القصة بحيث لا يتصور الحدث بدونه، وذلك لأن المَعْنِي بالذِّكر هو الحدث وحده. فمثلاً يقول الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص].

والمدينة هنا هي مدينة فرعون، وقد دخلها موسى بالفعل، وهي أحد المواقع التي جرت فيها أحداث القصة، ولذلك خُصَّت بالذكر تخصيصاً مبهماً، إذ تصور

الأحداث متوقف عليها، ومرهونة بها، ولما لم تذكر لتعذر تتابع الأحداث في مجراها الطبيعي. أما المواضع التي خُصَّت بالذكر كما في قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾. [الأحقاف].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾. [الحجر].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾. [طه].

فإما بقصد الشرح والإبانة، أو لإقامة الحجة والشهادة على قوم بعينهم، أو لأنها مواضع لوقائع جرت، أو لأحداث مضت ارتبطت بأماكنها، فوردت وأثبتت لمقتضيات ولضرورة ودواعٍ ليس من بينها الأحداث المخصوصة، لأن الموضع مهما التصق ومهما بلغ من الأهمية، فقد أُعدّ منذ البداية وهيأ له، ولكنه لا يتغلغل في الأحداث، ذلك التداخل الذي يؤثر في بنية الحدث.

ب ـ الزمان:

والزمان من حيث الإبهام والعمومية كالمكان تماماً، لأن الزمان يحدد الشريحة الزمانية التي تمت في إطارها الأحداث، فإذا أنجزت قيل إنها أحداث وأفعال ماضية، أي بعدت عن الزمان الذي وقعت فيه، فهي على هذا نفذت في زمان سابق على الزمان الذي قصت فيه أخبارها، ولا وجود مادي ساعة الكلام عنها، وما بقي لها من وجود هو المعرفي والعلمي.

وعلى هذا فالماضي يعطي للأحداث زمانية حدوث فيعبر عنها بأنها أحداث قد تقدم أو سبق زمانها، لإنجازها في زمن غير الزمن الذي قصت فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾. [الزُّخرف].

أي الذين نفذت أفعالهم في وقت سابق، وبقيت أخبارهم تحكي عما فعلوه، وتقص ما أنجزوه من أعمال.

وفي القصة القرآنية ورد الزمان مطلقاً بلا قيد، اللهم إلا قيد الماضي وحده، وحتى هذا القيد أُبهم على نحو فريد جعل الماضي كله ماضياً قرّبِ فيه البعد الزماني إلى حد بات معه الزمان لا هو زمان موغل في القدم ، ولا هو زمان حديث في وقت الإعلام عنه، بل هو زمان مرت فيه أحداث سابقة على كل من أخبر أو أعلن عنهم. وبذلك ألغت القصة الحاجز الزماني بعد الحدث الماضي وبين الوقت الذي يخبر فيه بالحدث، بحيث يتلقاه المقصوص عليه وكأنه حدث سابق على وجوده ، وسبقه قريب يثير انتباهه بشدة إلى شيء عظيم القدر وهنا تصبح الوقائع لقربها منه وقائع يمكن الشعور بها، وإن استحال عليه رؤيتها رؤيا العين.

ونظرة متأنية على الماضي كما أضمر في القصة القرآنية التي ترينا كيف أن الماضي هو ماضي لمن سمع بوقائعها، لا بوصفه ماضياً للأحداث والوقائع لأن الماضي قد جُرِّد من صبغته الزمانية وتحول إلى زمان فيه استمرارية تجري حية في حاضر كل متلقّي للقصة القرآنية. ولعل هذا يفسر لنا ما لوحظ من كون كل وقائع القصص لم تنسب إلى زمان بعينه، وإنما نسبت إلى الماضي وحده وذلك حتى يكون الماضي في خدمة الحدث،فإذا قيد الزمن أو حدد تحديداً يفقده عموميته فقد الحدث قيمته كمرتكز جوهري للقصة، ومن ثم تفقد القصة أهم دعامة من دعائمها.

ما هي الأزمنة في القصة؟

تنقسم الأزمنة في القصة إلى ثلاثة أنواع هي:

١ـ زمن القص «الحدث» وهو الزمن الذي يستهلكه الحدث لوقوعه فهو أكثر مطاطية وحركة.

٢ـ زمن السرد «الحكاية» وهو زمن كتابة القصة أو زمن الخطاب أو زمن نقل القصة..

٣ـ الزمن النفسي وهو الإحساس الذاتي والشعور بمرور الزمن من عدمه وهو زمن متعلق بالإنسان نفسه يطبق في القصة على أبطالها ويتم التعبير عن هذا الزمن من داخل الشخصية «على لسانها» أو من خارج الشخصيات على لسان السارد «الخطاب»..

وتتوالد تقنيات معينة من تداخل هذه الأزمنة مع بعضها البعض...

المفصليات الزمنية

هي التقنيات التي يعتمد عليها كاتب القصة في خلخلة الترتيب التقليدي للزمن «ماضي / حاضر/ مستقبل» للوصول إلى فعالية الأحداث وإبراز الأهم منها بعيداً عن رتابة الزمن ومن هذه التقنيات:

١ـ الترتيب: خلخلة مرور الزمن بترتيبه التقليدي «ماضي/ حاضر/ مستقبل» منها:

أ ـ الاسترجاع وهو تقديم الماضي على الحاضر.

ب ـ الاستشراف وهو تقديم المستقبل على الحاضر

ت ـ التتابع الأسلوبي التقليدي للزمن.

٢ـ المدة: وهي تسجيل الزمن الذي يشغله القصة على مستوى الخطاب ومنها:

أ ـ الخلاصة وهو اختزال الحدث.

ب ـ الوقفة وهو توقف الزمن على مستوى الخطاب.

ت ـ الحذف / وهو غياب وحدات زمنية موجودة.

ث ـ المشهد/ وهو تساوي الخطاب مع القصة.

ج ـ القطع/ وهو القفز على الزمن أو استحضار أزمنة أخرى.

٣ـ التواتر: وهو تسجيل تكرار الحدث على مستوى القصة ومنه:

أ ـ يروي أكثر من مرة ماحدث مرة واحدة.

ب ـ يروي أكثر من مرة ماحدث أكثر من مرة

ت ـ يروي مرة واحدة ماحدث مرة واحدة

ث ـ يروي مرة واخدة ماحدث أكثر من مرة

وهذه التقنيات مجتمعة تجعل القصة نصاً غير تقليدي في وضعية الزمن...

الترتيب في القصة القرآنية

لم تغب القصة القرآنية عن المشهد النقدي بل احتوت كل جوانبه التي تم ذكرها سابقاً فإذا اعتبرنا زمن نزول الآيات القرآنية هو زمن السرد فيكون لدى القصة القرآنية أربعة أنواع للزمن هي:

١ـ زمان السرد يكون متأخراً عن زمن القص «الاسترجاع»

وهذا في أغلب القصص القرآنية إذ يقص الله سبحانه وتعالى على نبيه أخبار الرسل السابقين وتختتم الآيات في أغلب هذه القصص بتذكير الله لنبيه فضله بهذا القص الذي لم يعلمه هو من قبل بألفاظ متعددة منها:

ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران].

ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف].

ـ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

[القصص] .

ـ ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص].

ـ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾. [القصص].

مع التركيز على لفظة «وما كنت» في كل مرة كاسترجاع مقصود إلى ذلك الزمن القديم وتذكير بفضل هذا الاسترجاع في هذا القرآن في القصة بالذات لأنه لا علم للنبي ولا لكفار قريش بهذه التفاصيل ولا بالقصص تلك ويجمع هذا الأمر كله قول الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف].

٢ـ زمن السرد سابق لزمن القص «الاستشراف»

ويظهر هذا جلياً في حوادث الآخرة ونهاية الظالمين وشرح أحوال المؤمنين والكافرين ـ على السواء ـ في الجنة والنار والحوارات التي تدور بينهم بحيث يصير حاجز السرد «الخطاب» هو حاجز الأحداث فيصبح المتلقي متفاعلاً يحيا واقع الأحداث ونلاحظ هنا تغليب فعل المضارع في عرض هذه الوضعية من الأحداث وتلعب الأحداث دوراً رئيساً في عرض المشهد الأكثر توتراً في القصة وهذه التقنية «الاستشراف» لها خصوصيتها في القرآن الكريم وذلك بسببين:

١ـ طبيعة صاحب الخطاب «الله» فهو عالم الغيب والشهادة وله الحق في الاستشراف.

٢ـ إن القصة في القرآن هي وسيلة من وسائل الدعوة والوعظ ويبلغ أعلى

درجات الوعظ بمشاهدة المتلقي لمصائر الظالمين فكانت تقنية الاستباق.

٣ـ الزمن النفسي «سبق تعريفه»

ظهر واضحاً في قصص القرآن الكريم على أسلوبين :

١ـ على لسان شخصيات القصة فيتحدثون عن زمنهم النفسي«الذي لاشك ينفصل عن الزمن الواقعي الخارجي» واقرأ معي: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾. [غافر].

رغم قصر اليوم لكنه سيكون ذي فائدة لديهم ـ كما يظنون ـ لأنه لديهم كبير جداً «نفسياً» لوجود العذاب..

٢ـ الخطاب السردي هو المتحدث عن زمن الشخوص النفسي لأن المتحدث الله الذي يعلم السر وأخفى فيعلم زمن الأشخاص النفسي وتقلبهم فيه واقرأ معي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإنسان].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يونس].

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.[الرُّوم]. وغيرها من الآيات.

موضوع الآيات الأولى هو يوم الحساب ،فطول هذا اليوم مقارناً بالزمن الأرضي هو خمسون ألف سنة،فالمدة التي يقضيها المؤمن والكافر في هذا اليوم العصيب هي نفس المدة، ولكن الإحساس بها،وتقدير طولها وقصرها يختلف بينهما اختلافاً شديداً فالمؤمن يراه يوماً قريباً قصير المدة، أما الكافر فيثقل عليه ثقلاً شديداً ،فهو يستطيل «ذلك اليوم لشدته» وهوله.

ويفسر هذا المعنى حديث رواه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري قال:قيل لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» :يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم؟فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا» ،وإمعاناً في الدلالة على طول هذا اليوم على الكافر،وفي التعبير على شدته عليه استعمل القرآن الكريم لفظ «**الثقل**» مع أن العادة أن يقال :زمن طويل أو قصير ،لا ثقيل أو خفيف،والحق أن القرآن في قوله تعالى:﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإنسان]، قد استعار الثقل لشدة اليوم وهوله، ولعظم وقعه على نفس الكافر، فهو ثقيل ثقلاً معنوياً على نفسه،لا ثقلاً حسياً على جسده، وقد وصف الزمن ـ كذلك ـ بالثقل في قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف١٨٧] ،وهذا الثقل في «**الساعة**» إنما هو لفقد العلم بها «فإن المجهول ثقيل على النفس،ولاسيما إذا كان عظيماً».

ويرتبط هذا **بالنظرية النسبية وماهية الزمن** لديها فمرة سُؤِلَ **اينشتاين** ـ صاحب النظرية النسبية ـ عن معنى النسبية فقال «لأن تقعد مع امرأة جميلة ساعتين تحس أنهما دقيقتين ولأن تجلس على موقد دقيقتين تحس أنهما ساعتين هذه هي النسبية».

٤ـ الزمن التتابعي

هذا الزمن بعيد عن زمن السرد والقص لكنه زمن تمر فيه القصة بتتابع منطقي تقليدي دون تخلخل من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل وقد وجد له قدم في القصص القرآنية ليخدم سرد القصة بسلاسة في إنسيابية متتابعة ونلاحظ ذلك في قصة سيدنا موسى عليه السلام والعبد الصالح في سورة الكهف وتركزت الأحداث على الحوارات والحركة دون تدخل من السارد «الخطاب» لتصل في الآخر

إلى نهاية وعظية مطلوبة.

تقنية القطع والحذف

أولاً: القطع:

من التقنيات الزمنية الخاصة التي تعني القفز عن زمن معين أو استحضار أزمنة أخرى ونجد هذا في القصص القرآنية بشكل واضح في قصص الأنبياء حيث يتم القفز من زمن القصة إلى الخاتمة في الآخرة خصوصاً في السور التي تناولت القصة بشكل مقتضب كما في سورة النازعات والعنكبوت اللتين لم تفصلا في قصة موسى عليه السلام كما فصلت سورة طه أو يونس ..وتظهر خاصية القطع أيضاً في استحضار مفردات زمنية غائبة تخدم القصة ليست على ترتيب القصة ففي قصة موسى عليه السلام مثلاً في سورة الأعراف ذكرت السورة زمنين متعاصرين في وقت واحد قصة هارون مع قوم موسى عليه السلام أثناء ذهاب موسى عليه السلام إلى ربه وما دار بينهم من جدال حول العجل وهو نفس الجدال الذي فصلته سورة طه تداخلا مع قصة السامري، في نفس الوقت قصة موسى عليه السلام مع ربه وأخذه الألواح وطلبه رؤيته لله وما يمكن أن نطلق عليه عبارة «وفي تلك الأثناء» لتعاصر الحدثان تقوم القصة باستحضارهما معاً في خاصية القطع..

ثانياً: الحذف:

يتناوب الحذف والقطع على تجاوز أحداث لا تفيد القصة بشيء وتقفز مباشرة إلى قلب التوتر في القصة والتخلص من الهامشيات التي لا تخدم القصة في شرحها بشيء ففي قصة موسى عليه السلام مثلاً في سورة طه انتقل الحديث مباشرة من موقف حديث موسى عليه السلام مع ربه إلى موقفه في قصر فرعون ثم قفزة إلى يوم الزينة وكثير من القصص تقوم على هذه التقنية بحيث يكون الخلط بين تقنية الحذف

والقطع لخدمة أغراض القصة من حيث الإيجاز...

تقنية الوقفة والخلاصة

أولاً: الوقفة:

على النقيض من تقنية الحذف والقطع كانت الوقفة وهي امتداد الزمن لوضعية معينة قد تأخذ من الزمن قطعاً كبيراً كان أو صغيراً لكن القصة القرآنية وقفت معها طويلاً شارحة أوضاعها لهدف معين وهو إبراز هذا الحدث كمحور مؤازر في حركة القصة والملاحظ على هذا الحدث أنه لا يتكرر مع تكرر القصة في سورة أخرى«فلا يظهر هذا الحدث إلا مرة واحدة» ومثال على ذلك قصة مؤمن آل فرعون الذي فصلته سورة غافر ولم يظهر ثانية في كل السور التي تناولت قصة موسى عليه السلام وكذلك قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام في سورة الكهف حتى يمكن اعتبارهما كقصتين منفصلتين عن قصة موسى عليه السلام وكذلك قصة النمرود مع نبي الله إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة وغيرها من الفروع في القصص الكبرى.

ثانياً: الخلاصة:

اختزال الحدث والقفز منه إلى العبرة المطلوبة منه، لأن المناط بالقصص القرآنية هو العبرة تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾. [يوسف].

وليس التركيز على الحدث هو المطلوب بقدر أخذ العبرة وإذا كان كذلك نجد القصة القرآنية في هذه النقطة لا تفصل بل تمر مر الكرام بشكل مختصر (آية أو آيتين الهدف) هنا إبراز هدف معين تسوقه القصة منذ البداية خصوصاً في السور التي

ذكرت عدداً كبيراً من الأنبياء..

تطبيق عن الزمان في القصة القرآنية:

نسوق مثالاً يبين أن القرآن الكريم يكسر حواجز الزمن الماضي والحاضر والمستقبل وهو ما لا نجده في القصص البشرية:

لنتأمل هاتين الآيتين في صفة بني إسرائيل وكيف عبَّر عنهم البيان الإلهي:

١- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة].

٢- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء].

إن عبارة﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ لم ترد في القرآن كله إلا في هذين الموضعين وكما نرى الحديث دائما على لسان بني إسرائيل، وكأن الله تعالى يريد أن يقول لنا بأن هذه الكلمة لا تليق إلا بهؤلاء، فهي لم ترد على لسان أي من البشر إلا بني إسرائيل!

هذه الحقيقة نكتشفها اليوم لنعلم حقيقة هؤلاء اليهود الذين حرفوا كلام الله سبحانه وتعالى، لذلك جاءت كلمة ﴿وَعَصَيْنَا﴾ لتعبر تعبيراً دقيقاً عن مضمون هؤلاء.

التدرج البياني

وقد لاحظتُ شيئاً عجيباً في هاتين الآيتين:

١ ـ الآية الأولى جاءت بصيغة الماضي ﴿قَالُوا۟﴾، فهذا يدل على ماضيهم

وتاريخهم في المعصية. ولكي لا يظن أحد أن هذا الماضي انتهى جاءت الآية الثانية بصيغة الاستمرار ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للدلالة على حاضرهم ومستقبلهم في معصية أوامر الله تعالى، فهم في حالة عصيان مستمر. ولم يكتفوا بعصيانهم بل أغلقوا قلوبهم وغلفوها بغلاف من الجحود والكفر والعصيان، ويأتي البيان القرآني ليصف قلوب هؤلاء على لسانهم، ولنستمع إلى هاتين الآيتين:

١ ـ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة]

٢ ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء].

وهنا من جديد نجد أن عبارة ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ لم ترد في القرآن كله إلا في هذين الموضعين، وهذا يثبت أن كلمات القرآن تُستخدم بدقة متناهية فكلمة ﴿غُلْفٌ﴾ هي كلمة خاصة ببني إسرائيل بل لا تليق هذه الكلمة إلا بهم.

ولكن هنالك شيء أكثر إدهاشاً، فالآية الأولى جاءت على صيغة الماضي فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ لتخبرنا عن ماضي هؤلاء وحقيقة قلوبهم المظلمة، ثم جاءت الآية الثانية بصيغة الاستمرار ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ لتؤكد حاضرهم ومستقبلهم أيضاً، وهذا التدرج الزمني كثير في القرآن، فتسلسل الآيات والسور يراعي هذه الناحية لذلك يمكن القول بأن القرآن يحوي من الإعجازات ما لا يتصوره عقل: لغوياً وتاريخياً وعلمياً وفلسفياً وتشريعياً، ألا نظن أننا أمام منظومة إعجازية متكاملة في هذا القرآن؟

ج ـ نسبة الحدث:

أما نسبة الحدث إلى المحدث فهي نسبة تامة، سواء ذلك معروفاً باسمه أو وصف

بصفة اشتهر بها، أو عزى إلى قومه ، أو نسب إلى مكان بعينه ، فالنسبة إليه ظاهرة وصحيحة، لأن الوقائع في روايات القرآن هي كما حدثت بالفعل فيستحيل صرف سياق المنهج الرباني ، ويرمي إلى غاية يتخطى فيها نسبة الحدث إليه، أي يتخطى خصوصية الأحداث، وينفذ بعمق في بنية الحدث، ولأجل تجرد القصة القرآنية الفاعل من خصوصية أحداثه، والحدث نفسه من نسبته إليه.

والقصة القرآنية في إيرادها للأشخاص المحدثين لا تقصدهم من حيث ذواتهم المعينة في سياق الوقائع المعروفة، إذ يجرد ذلك التحديد الشخصية من سمة العمومية وبالتالي يخرج وقائعها عن نطاق القصة لتدخل بكل ثقلها الإحداثي في بنية التاريخ وتذوب في نسيجه الذاتي لتكون جزءاً منه ، ومن ثم تفقد خاصية المثال والأنموذج بكل ما يحمله من قابلية التكرار والإعادة فتجمد وقائعها في حدود ماضيها لا تكاد تبرحه أبداً.

نخلص مما سبق أن القصة القرآنية تولي اهتماماً كبيراً للحدث حتى عُدّ الحدث مناط القصة كلها، بل هو مقصودها أولاً وأخيراً، ولهذا السبب تجرد الحدث من عناصرها ليقف مستقلاً بنفسه، له شخصيته المميزة، وكيانه الفريد ، ليمتلك من وراء كل هذه القابلية للتكرار في كل زمان ومكان . نعم إن أحداث القصة القرآنية ووقائعها مبهمة المكان والزمان ومبهمة الشخصيات، وكل ذلك لأجل المنهج الرباني من جهة، ولكي تصبح جزءاً أصيلاً من العقيدة، وكلاً منهما لازم للآخر، فلا القصص القرآنية منفصلة عن المنهج، ولا المنهج منفصل عن القصة[1].

◆ ◆ ◆

(١) انظر: القصة القرآنية د/ الشفيع الماحي أحمد ـ مقال منشور بمجلة الوعي الإسلامي العدد٣٦٣ ذو القعدة١٤١٦هـ/ ابريل ١٩٩٦م ص٥٠ ـ ٥١.

٦ـ أغراض القصة في القرآن الكريم

سيقت القصة في القرآن الكريم لتحقيق أغراض دينية بحتة، فالقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها، وقد تناولت من هذه الأغراض عدداً وفيراً من الصعب استقصاءه، لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية. فإذا نحن استعرضنا هنا أغراض القصة القرآنية، فإنما نثبت أهم الأغراض وأوضحها، ونترك استقصائها وتتبعها .

أولاً: إثبات الوحي والرسالة.

لقد كان من أغراض القصة في القرآن(إثبات الوحي والرسالة)، فقد بيّن القرآن الكريم أن هذا القصص إنما هو بوحي من الله فمحمد ﷺ أميّ لا يكتب ولا يقرأ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾. [العنكبوت].

ثانياً: الإشارة إلى وحدة الديانات السماوية.

ومن أغراض القصة بيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح عليه السلام ، إلى عهد محمد ﷺ وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد الأحد هو رب الجميع.... فكثيراً ما وردت قصص الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة، معروضة بطريقة خاصة لتؤيد هذه الحقيقة الواضحة.

نضرب لذلك مثلاً ما جاء في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.[الأنبياء].

ثالثاً: بيان الغرض من دعوة الرسل:

وكان من أغراض القصة كذلك، بيان أن الدين كله واحد الهدف والأساس، وتبعاً لهذا كان الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ يركزون على هدف واحد، وغاية واحدة، ألا وهي الاعتقاد (بوحدانية الله) وكانت ترد قصص كثيرة من الأنبياء مجتمعة ، وكذلك مكررة فيها العقيدة الأساسية (الإيمان بالله الواحد الأحد) الذي هو الغرض الأساسي من دعوة الرسل على نحو ما جاء في سورة الأعراف في قوله تعالى:﴿ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. [الأعراف٥٩].

رابعاً: موقف الأمم من الأنبياء الكرام.

ومن الأغراض أيضاً في قصص القرآن الإشارة إلى موقف الأمم من الأنبياء الكرام فقد كان موقفاً متشابهاً... فما من نبي دعا قومه إلى الله إلا وقف في وجهه المجرمون موقف العناد والاستكبار، وموقف التكذيب والجحود كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾. [الفرقان]. فقد اتحدت في قصص الأنبياء صيغة الدعوة كما اتحدت من أقوامهم صيغة التكذيب....استمع إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.[هود].

خامساً: الترابط الوثيق بين الشرائع والأديان.

ومن الأغراض في القصة القرآنية بيان الترابط الوثيق بين الأديان السماوية فليس بينهما تعارض أو تصادم، بل إن جميعها تستقي من نبع واحد، وكل نبي إنما يأتي برسالة متممة ومكملة لرسالة النبي الذي سبقه، ويدعو إلى الإيمان برسالته، والاعتقاد بصدق ما جاء من عند الله تعالى، لأن مصدر التشريع واحد، وهو رب

العالمين، فليس هناك ما يدعو إلى النزاع والخصام كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾. [الشُّورى].

سادساً: النصر للرسل والهلاك للمكذبين.

ومن أغراض القصة أيضاً بيان أن النصر في النهاية للرسل الكرام، وأن الهلاك والدمار للأمم المكذبين، وفي ذلك تقوية للأنبياء ، وتطييب لخاطرهم، حيث يقر الله أعينهم في الدنيا بإهلاك أقوامهم المكذبين .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت].

سابعاً: تصديق التبشير والتحذير.

من أغراض القصة القرآنية تصديق التبشير والتحذير، وعرض نموذج واقع في هذا التصديق ، كالذي جاء في سورة الحجر، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ .[الحجر]. الخ... وهكذا يصدق الإنباء، ويبدو صدقه في هذا القصص الواقع بهذا الترتيب.

ثامناً: بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه:

كقصص سليمان وداود وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويحي ويونس وموسى فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى ويكون إبرازها هو الغرض الأول، وما سواه يأتي في هذا الموضوع عرضا.

تاسعاً: تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان.

وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر وإسنادها إلى هذا العدو الذي لا يريد بالناس الخير!!

ولما كان هذا موضعاً خالداً فقد تكررت قصة آدم في مواضع شتى.

عاشراً: بيان قدرة الله تعالى على الخوارق:

كقصة آدم عليه السلام، وقصة ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك للدلالة على قدرة الله الباهرة التي تقول للشيء كن فيكون...

فآدم عليه السلام ولد بدون أب وبدون أم ، وعيسى عليه السلام ولد من أم دون أب، وحواء ولدت من ضلع آدم، وكل ذلك دليل القدرة الباهرة على الخوارق العجيبة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

وكذلك قصة إبراهيم عليه السلام والطير الذي ذبحه ثم عادت له الحياة، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقد أماته الله مائة عام ثم أحياه. وقصة زكريا عليه السلام وزوجه...

كل هذه القصص وأمثالها مما يدل على قدرة الله العجيبة في خرق العادات، وإظهار الخوارق العجيبة في هذا الكون البديع.

حادي عشر: عاقبة الخير والصلاح، وعاقبة الشر والفساد.

فمن أغراض القصة في القرآن الكريم بيان عاقبة الخير ، وعاقبة الشر مثال ذلك: قصة ابني آدم عليه السلام (قابيل وهابيل) المذكورة في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ

عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .[المائدة].

وكيف اعتدى «قابيل» على أخيه فأقدم على قتله، إلى آخر ما في القصة من مغزى دقيق حول العدل الإلهي المطلق.

أما عاقبة النعمة والغرور: فقد تجلى ذلك في مجموعة من القصص القرآني: مثل صاحب الجنتين، وقصة سد مأرب، وقصة أصحاب الأخدود، وقصة أهل القرية الآمنة التي كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، فهذه القصص وغيرها وردت لبيان عاقبة الخير والشر ، إلى آخر هذه الأغراض الوعظية التي سيقت فيها القصص بأروع أسلوب لتؤدي غايتها وتفي بمغزاها[1].

ثاني عشر: بيان الفارق بين الحكمة الإلهية والحكمة الإنسانية:

فمن أغراض القصص القرآني بيان الفارق بين الحكمة الإلهية البعيدة الآجلة والحكمة الإنسانية القريبة العاجلة.

مثال ذلك: قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح وما فيها من أحداث قال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾. [الكهف].

◆ ◆ ◆

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن ـ سيد قطب ص١١٨ دار الشروق ـ القاهرة.